قلعة الأقدار

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

قلعة الأقدار
اسم المؤلف: وليد حسن المدني
تصميم الغلاف: أسامة علام
تدقيق لغوي: سارة صلاح
رقم الإيداع: 2020/21449
الترقيم الدولي: 978-977-6634-48-0
الطبعة الأولى: 2020

وليد حسن المدني

قلعة الأقدار

ةةةةة

دارك
للنشر والتوزيع

الفصل الأول

(1)

الحال أصبح غير الحال فدوام الحال من المحال، الأجواء ليست كالأجواء، فالكل في حالة ترقب وتوعّد، الكل يتساءل عن مصير السلطان «صرغتمش» الذي ينام منذ أيام على فراش الموت، وعجزَ الأطباء والمداوون، وأصبح الموت هو المداوي الوحيد له. وإن كان الناس لا يشغلهم مصير السلطان على قدر ما يشغلهم مَن سيحكم البلاد بعده، الكل في حالة ترقُّب من سيكون السلطان الجديد؟

ذلك الزائر الجديد إلى القلعة، كيف سيأتي وكم سيحكم؟! كم من دماء ستنزف حتى يصل إلى كرسي السلطان، كم من المؤامرات تحاك الآن في كل أرجاء مصر المعمورة خصوصًا أن السُّلطان الحالي لم يكن له وريث ولد، يرث منه الحكم.

وما بين الوقت والآخر يأتي إلى القلعة قائد الجيش الأمير «بكتاش» مع والي القاهرة «إيواظ» ليطمئنا على صحة السلطان التي يأكلها البوار، ثم يغيبان عن القلعة يومًا أو اثنين، يتناوب معهما الزيارات الأمير حسن قائد حرس القلعة وأحد أكثر المقربين من السلطان في الفترة الأخيرة.

الجميع يعلم وأولهم السلطان، أن بمجرد إعلان خبر وفاته سيعلن كِلا الأميرين أحقيته بالحكم وسيبدأ الصراع المسلَّح بينهما من أجل الفوز بالسَّلطنة، وإن كان قد بدأ من الآن صراع المؤامرات وحشد القوى من أجل الاستعداد ليوم الفصل.

كِلا الفريقين في حالة ترقب لموت السلطان، كل منهما بمماليكهما وأمرائهما وفرسانهما في حالة انتظار لحظة الموت - فلا يصونوا لها حُرمة ولا قداسة - حتى تتهاوى السيوف على الأعناق، والخناجر في القلوب، وتسيل الدماء أنهارًا من كِلا الفريقين، ومَن يقتل أكثر، ومن يمكر أفضل يكون له النصر في النهاية.

ولسان حال المصريين؟!

ولسان حال المصريين يقول «اللهم أهلِك الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بين أيديهم سالمين». ولكن هيهات أن ينجوا أحدٌ من هذه المذبحة؛ فكلٌّ منهم يسعى إلى استعراض قوته، وغالبًا ما يكون أهل البلد من العمال والفلاحين والغلابة هم كبش الفداء الذي يستعرض فيهم كل أمير قوته عسى أن يخشاه الآخر ويرهب قوته فيأتيه فيسلم ويبايعه على (الدكة السلطانية).

وما إن تنتهي المذابح في الحواري والشوارع حتى تبدأ مذبحة جديدة في القصور والقلاع.

يأتي السلطان الجديد بكل من في القلعة من حريم وجوارٍ وعبيد وحتى خصيان، يتلذذ بقتل هذا أمام ذاك، وتلك أمام تلك، وسط صرخات فزع من أهل السلطان القديم، وضحكات من حاشية السلطان الجديد، إلى أن يصل الأمر إلى أقرب أقرباء السُّلطان القديم، ربما تكون ابنته أو زوجته، لا يهم ولكن الأكيد أنها أجملهن وأحلاهن في عين السلطان الجديد؛ فإن أراد الله بها خيرًا يأمر السلطان بقتلها أو حبسها أو حتى نقلها إلى بيت الحريم ليتلذذ بها وقتما شاء، أو تكون الأخرى.

حكايات وحكايات رويت من داخل أسوار القلعة عما يرتكبه السلطان الجديد من أهوال في حق حاشية السلطان القديم وإن كان أكثرها وأفظعها ما رواه أحد الحراس عن السُّلطان «صرغتمش»

عندما تولى الحكم، أنه اغتصب كل نساء السُّلطان السابق أمام آبائهن وذويهن، وسط صرخات وتوسلات وبكاء الأطفال التي لم تشفع دموعها لشيءٍ، حتى الأطفال لم يرحمها هذا الذئب العاتي.

لم يكن هذا الوضع بالطبع غائبًا عن السلطان العجوز؛ ففي الأيام الأخيرة بات يتذكر ما فعله من أهوال في بداية حكمة وهو يتخيل مصير ابنته الوحيدة (قمر الزمان) من بعده.

ثلاثون عامًا قضاها السلطان في حكم البلاد، لم تشهد البلاد فترة مثلها، حقًّا هي مصر، بلد المتناقضات، على الرغم من قسوة السلطان في معاملة أعدائه أو حتى من يتوجس منهم العداوة، وعلى الرغم مما أشيع عنه من جبروت وقسوة في تعذيب أسراه، إلا أنه كان يعامل الشعب معاملة حسنة؛ فأكثر من بناء المساجد والأسبله ومهَّد الطرق، فتح الكثير من الكتاتيب لتحفيظ القرآن الكريم ودراسة علوم الفقه والتفسير.

لقد فهم طابع المصريين وميلهم الفطري إلى الإيمان والدين؛ فلعب على هذا الخيط، خرج للناس كل يوم جمعة ليصلي معهم في المسجد الأزهر وهو يتمتم بالدعاء على مسمع ومرأى من العامة، إلى أن أشار إليه أحد معاونيه أن يبني له مسجدًا خاصًا يحمل اسمه ويُدفَن فيه بعد موته. بالفعل أمر السلطان بتجميع أمهر الصناع والعمال والبنَّائين لبناء المسجد الذي استغرق بناؤه خمس سنوات كاملة، كان العمل فيها ليل نهار حتى ينتهوا من المسجد الذي أصبح تحفة معمارية تضاهي المسجد الأزهر والسلطان حسن؛ فكسب تأييد الناس له، فكانت من الأسباب التي أطالت مدة بقائه على كرسي السلطنة، فأي أمير يحاول التأمر على السلطان يخشى من غضب الناس التي باتت تعشق السلطان أكثر من أي حاكمٍ آخر، خاصةً مع مضي الزمن فبات كالقدر لا مفرّ منه.

***

(2)

فَتَح السلطان صرغتمش عينيه بعد أن غاب عن الوعي مدة طويلة. مدَّ يده ليلمس يد ابنته التي لم تفارق مخدعه منذ بداية الحمى، والحزن لا يفارق قلبها والدمع لا يفارق عينيها، فقال لها السلطان هامسًا بصوت لا يكاد يُسمَع:

- لقد حانت ساعتي يا قمر الزمان، واقترب موعدي، فالسفر شاق، والطريق طويل، وليس لنا مفر منه إلا برحمة ربي.

- أطال الله عمر مولاي السلطان، يا سلطاني وحبيبي وأخي وأبي.

- أنا لا أخاف الموت يا بُنيتي، لقد واجهت الموت كثيرًا ولا أخشاه. بل الآن أنا أتمناه أكثر من أي وقت مضى كي أستريح، ولكن ما أخشاه هو مصيرك أنتِ من بعدي، سأتركك في هذه الدنيا وحدك، فريسة للذئاب الجائعة وينهش لحمك الكلاب.

صمت السلطان لحظات وكأنه استغرق في التفكير ثم قال:

- ائتوني بالشيخ بدر الدين السحيمي. أرسلي له قائد حرس القلعة يأتيني به الآن، أريد أن أوصيه وصيتي الأخيرة قبل أن أموت، لعله يصفح عني على ما فعلته به.

- حفظ الله مولانا من كل سوء ومكروه، ولكن الشيخ بدر الدين السحيمي مات من زمانٍ مضى.

- هذا ما أشيع بين الناس، الشيخ السحيمي لم يمت، فأنا لا أجرؤ على قتل هذا الرجل؛ الرجل الوحيد الذي أشعر أمامه بضعفي وقلة حيلتي، لم أجرؤ على قتلة بل اكتفيت بسجنه في سرداب سري تحت القلعة، لا يعرف طريقة إلا أنا والأمير حسن، وقد انقطعت عن زيارته من زمنٍ.

ثم صمت السلطان لحظة وأكمل وهو يتنهد في ألمٍ:

- كم أفتقد هذا الشيخ الفاضل، تُرى هل سيسامحني؟! أرسِلي له الأمير حسن الآن يأتيني به.

- أمرُ مولاي.

***

ما إن سمع الأمير حسن طلب السلطان حتى تعكر صفاء وجهه وظهرت علامات رفض على ملامحه، فطنتها الأميرة قمر الزمان؛ فحسمت الموقف بلهجة أمر لا تقبل المجادلة أو الحوار.

- افعل ما يأمرك به مولاك يا أمير.

- ولكن يا مولاتي السلطانة، إن رؤية الشيخ السحيمي في هذا التوقيت ربما لا تنفع، بل بالتأكيد ستضر، كلانا يعرف مَن هو الشيخ السحيمي، وما هي جرأته ووقاحته في مخاطبة السلطان وربما لا يطيق السلطان سماع هذا الشيخ الآن وبعد هذا العمر من البُعد، لذلك أنا أقترح...

فقاطعته قمر الزمان قائلة:

- أنت لا تقترح شيئًا، أنت تفعل ما تُؤمَر به وأنت صامت وإلا قطعت رأسك الآن.

انحنى الأمير حسن أمام الأميرة قمر الزمان انحناء تبجيل وهو يحاول أن يكظم غيظه، وإن كان يتوعد لها في نفسه وهو يقول في سريرته «ما هي إلا أيام قليلة أيتها الغانية الحقيرة وتكونين تحتي في الفراش».

***

على الرغم من أنه لم يمضِ من الوقت الكثير منذ أن طلب السلطان لقاء الشيخ السحيمي، وعلى الرغم مما يعرفه أن طريق السرداب طويل إلا أنه لم يكف عن السؤال عنه.

- لقد أرسلت الأمير حسن في طلبه وهو الآن في الطريق يا مولاي، لمَ الاستعجال؟!

- أخشى أن يدركني الأجل قبل أن ألقاه، إنه أملنا الأخير في الدنيا والآخرة.

ظهرت علامات التعجب على وجه الأميرة قمر الزمان وإن لم تحاول أن تسال والدها عن هذا اللغز. فمتى حلت لغزًا مِن والدها؟ فقد تعلمت منه أنه لا ينطق إلا بالقليل وما يخفيه أعظم. ولكن كيف يكون هذا الشيخ العجوز المنفي في غيابات السجن منذ أكثر من عشرين عامًا طوقَ نجاةٍ في الدنيا والآخرة؟!

قطع الحاجب حبل أفكارها بصوته الجهوري وهو يقول:

- الأمير حسن مع السجين في انتظار أوامر مولاي.

نظر السلطان صرغتمش إلى قمر الزمان وقال لها:

- أدخلي الشيخ السحيمي بمفرده.

- سمعًا وطاعة يا مولاي.

تنهد السلطان تنهيدة طويلة ربما يشعر من خلالها بما هو مقبل عليه من مهمة شاقة، بينما غادرت قمر الزمان المكان.

***

على الرغم من أنها لحظات قلائل وينكشف الستار عن سجين القلعة إلا أن هذه اللحظات مرت على السلطان كأنها دهر طويل، بات يتذكر ذكريات الطفولة واللهو مع الشيخ، حِسهما فجأة بالرجولة، الحياء الذي كان يحوم حول أحاديثهما في مرحلة الشباب، ذهابه مع الشيخ إلى صحن المسجد الأزهر ليستمع إلى دروسه، صداقة عمر ضاعت بمجرد أن اعتلى صرغتمش (الدكة السلطانية)، وإعلان الشيخ معارضته لطريقة البيعة التي أخذت بالسيف فلم يشفع له محاولته في التقرب للعوام ببناء الأسبلة أو تجديد الجوامع حتى كان بيت الشعر اللعين ذلك الذي ألفه الشيخ، فصار نشيدًا على لسان العوام، حتى أصبح الشيخ السحيمي يحرِّض الناس على السلطان ولا يترك درسًا له في المسجد إلا ويتحدث عن الفساد الذي حلَّ في القلعة، إلى أن أصبح الخطر محققًا وكان لا بُدَّ من التخلص منه. ولكن أمثال الشيخ السحيمي لا يُقتَلون بأمر، شعر السلطان أمامه بالضعف كعادته فاكتفى بحبسه. في الأيام الأولى لسجنه كان يذهب كثيرًا كي يجلس معه في السجن وينصحه أن يكف عن تحريك الناس ضد القلعة وسوف يأمر بإخراجه حالًا، إلا أن الشيخ السحيمي كان يرى في السجن تتويجًا لكفاحه ضد الظلم والاستعباد. فمضت الأيام وانقطعت الزيارات حتى كاد أن ينساه السلطان إلا من تلك الليلة التي سطعت في رأسه تلك الفكرة الغريبة!

***

فتُح الباب الخشبي الكبير ببطءٍ شديدٍ، تزايدت معه دقات قلب السلطان ليس من مرارة لحظة اللقاء ولكن هول ما شاهدة وأفزعه، فلم يكن يتخيل أن يكون الشيخ على هذه الهيئة.

كان أمامه رجل عجوز شديد بياض الشعر، اللحية طويلة تكاد أن تصل إلى منتصف بطنه، محني الظهر، لا يكاد يستطيع أن يفتح عينيه، يقف أمامه مكبَّلًا بالحديد من يديه إلى قدميه.

- كعادتك أنت الأقوى يا شيخ حتى وأنتَ مكبل بالحديد.

- أحالي هذا حال الأقوى يا سلطان البلاد؟

- حالك أفضل من حالي.

- وما الذي ذكَّرَك بي بعد هذه السنوات، بعد أن استرحت مني واسترحت منك؟

ظهرت ابتسامة مودة على وجه السلطان صرغتمش وإن تبعتها ابتسامة ألم حادة ثم أكمل كلامه بنبرة مسكَنَة وذُل قد اعتاد أن يتكلم بها في حضرة الشيخ وإن كان قد نسيها منذ سجنه:

- ما زلتَ كما أنتَ يا شيخ.

- الحمد لله الذي يقلِّب القلوب وثبت قلبي على الحق.

- اجلس بجواري يا شيخنا فأنا أحتاجك، فهل ستكون لي العون والمدد كما كنت دائمًا؟

- وماذا فعلت بهذا المدد والعون يا سلطان! ثم أين أمراؤك ومماليكك، ومَن هم أشد مني قوة وبأسًا، وماذا بيدي أنا الفقير الغلبان وسط هؤلاء العتاة الجبابرة؟!

- السـلطان عـلى فـراش المـوت لا ينفعـه مجـد زائـل أو أمـير خائـن. السُّـلطان عـلى فـراش المـوت لا ينفعـه إلا صديـق مخلـص يوصيـه وصيتـه الأخـيرة؛ لذلـك حافظـت عـلى حياتـك مـن أجـل تلـك اللحظـة التـي كنـت عـلى يقـين أني سـأحتاجك فيهـا - وإن كنـت حينهـا لا أعلـم فيـما هـي - ولكنـي كنـت عـلى يقـين أنـك سـتكون لي طـوق النجـاة الأخـير.

- الله مَن حافظ على حياتي يا سُلطان المسلمين وليس أنت.

- أنـت دائمًـا تغفـر يـا شـيخنا، فاغفـر لي وعـزائي الوحيـد أني سـأريحك منـي إلى الأبـد، ولكـن وصيتـي الأخـيرة هـي ابنتـي. لا بـل ابنتـك أنـت، قمـر الزمـان يـا شـيخ، أتتذكرهـا؟ إنهـا الطفلـة الصغـيرة التـي وُلـدَت عـلى يديـك، الآن أصبحـت شـابة جميلـة، هـي كل مـا أخـاف عليـه في الدنيـا قبـل أن أتركهـا، حافـظ عليهـا يـا شـيخ واحمِهـا مـن الملاعـين والذئـاب.

- الملاعـين والذئـاب هـؤلاء مَـن تربـوا في كنفـك يـا سـلطان، لينهشـوا لحمـك الآن.

- ألا ترفق عليَّ يا رجل حتى وأنا على فراش الموت؟!

- وهل رفقت بشعبك أنت وأنت على فراش الحكم.

- ابنتـي يـا سـحيمي، تعـرف مـاذا سـيكون مصيرهـا مـن بعـدي لـو تخليـت عنهـا؟

- مصيرهـا سـيكون مثـل مصـير مـن سـبقوها مـن حريـم السـلطان السـابق. تذكـر هـذه الليلـة يـا مـولاي، تذكـر دموعـي وتوسـلاتي أن ترحـم النسـاء والأطفـال، أتذكـر دمـوع الثـكلى وتوسـلات الصغـار، لمَ لم تعمـل لمثـل هـذا اليـوم، كـما تديـن تـدان يـا صرغتمـش.

- أنا كنت أحافظ على أمن البلاد.

- آه منك يا أمن البلاد. كم من مصائب تُرتكَب باسم أمن البلاد! إنها شهوتك أنت يا سلطان، لا أمن البلاد.

- حسبي حب الناس والخير الذي فعلته طوال فترة حكمي. انظر إلى الجوامع، تضاعَفَ عددُها. انظر إلى الناس هل منهم سائل أو محروم؟ انظر إلى كل مَن حولك هل كانت البلاد هكذا من قبلي؟!

- لم أرَ البلاد منذ أكثر من عشرين عامًا يا سلطان، تذكر.

- إني فعلت الكثير من الخير للبلاد والعباد.

فردَّ عليه السحيمي ساخرًا:

- إن هذا الخير الذي تتحدث عنه لا يراه ولا يتمتع به إلا صفوتك الحاكمة التي تتفنن في امتصاص دم الغلابة، أما الناس فكنت لهم جزار.

ثم أنشد بيت الشعر وكأنه يتذكر تلك الأيام:

«لقد بُلينَا بأمير ظلمَ الناس وسبَّح، هو فينا كالجزار يكبِّر قبل أن يذبح».

- أما زلت تذكره يا شيخ؟

- وهل ينسى الرجل بيتَ شعرٍ أُلقي به في ظلمات السجن عشرين عامًا.

- أنت من فعلت بنفسك هذا، بل تذكر أنت توسلاتي لك أن تكف عن الكلام في شؤون الحكم والبلاد. تذكر توسلاتي وإنذاري لك أن تكف عن القول بهذا البيت اللعين من الشعر حتى بات اسمي بين الناس «صرغتمش الجزار».

- أولم تكن جزار يا سلطان؟ ألم تفكر في بيتي؟ أولم تفكر في ابني الذي تركته يلعب في الحارة؟ أولم تفكر في زوجتي التي تركتها توقد النار

في البيت تُعد لي طعام الغداء، ولكني ما أتيت، وها أنت الآن تتسول مني الشفاعة على فراش الموت. فأي شفاعة وأي بنت أحفظها لك بعد أن أضعت مني كل شيء!

- بل أطلب منك رد الأمانة يا شيخ، رد لي الجميل.

- أي أمانة وأي جميل؟

- الخلاف كان بيني وبينك ولا دخل لأبنائنا، وقد حافظت على ابنك، فاحفظ لي ابنتي كما حفظته.

وما إن سمع الشيخ بدر الدين السحيمي كلمة ابنك حتى اهتزت فرائسه، وكاد أن يقع على الأرض، لولا أن سندَ بيده على مقدمة السرير الخشبي الذي ينام فوقه السلطان ثم نطق بكلمة واحدة وكأنه يريد أن يتأكد من أن ما سمعه كان صحيحًا.

- ابني؟ هل هو ما زال حيًّا؟

- إنه في أفضل حال.

- هل أصبح من مشايخ الأزهر؟ هل أصبح شيخ المذهب الحنفي؟ هل أصبح إمام المسجد؟

- مهلًا مهلًا يا شيخ، إنه أفضل من ذلك بكثير.

- وهل يوجد أفضل من العلماء. إن العلماء هم أمناء الأمة يا سلطان.

- إنه الآن الأمير جلال الدين، أحد أهم أمراء المماليك قاطبةً والذراع اليمنى للأمير بكتاش قائد الجيش. فبعد أن ماتت أمه ذهبتُ به إلى أحد أهم أمراء المماليك ليربيه لك، وقد أظهر ابنك قدرة فائقة على حمل السلاح والمراوغة، وقد أبلى بلاء حسنًا في كثير من المعارك